ولكننا إذا لم نقل هذا فأى ذوق سليم تغيب عنه الشعوذة فى حكاية العذارى يمثلهن لنا الشاعر مروعات لأنهن ينظرن إلى الأرض ، فيسرعن إلى لمس جوانب العقد مخافة أن تكون الحصباء من سمطها المبدد وجوهرها المنثور . وأى شعوذة هذه التى تلمح فيها التمويه بارزا من المبدأ إلى النهاية ، فنخدع للمشعوذ لأننا أغمضنا أعيننا وأوصدنا آذاننا ، وأنكرنا الحس والعقل لا لأنه بهر العين وضلل الآذان ، وخلب الحواس والعقول . فالصورة التى عرضها علينا الشاعر غريبة عن أصل المعنى ، كاذبة كل الكذب . ولا فضل فيها للبراعة والطلاوة ، وقبولها على أنها معنى صحيح كقبول الجوهر الكاذب إكراما لصور العذارى الحاليات على العلب المزخرفة .

وقد قرأت هذا التقويم مرات متتالية ومتفرقة ، وما أزال أرانى فى حاجة إلى أن أقرأه وأتملى فيه حساسية العقاد بجمال الذعر المنتشر فى كثير من النماذج حتى صح أن يقال إنه راسخ فى العقول . وكان العقاد موفقا فيما أظن حين قال إن أكثر القراء يظنون البيت الخامس واسطة العقد وبيت القصيد . فأكثر القراء يرثون هذه الحساسية التى يدعمها الجنس المستور أو غير المستور . وما يزال فريق كبير من القراء يعجبون بشعر لأحمد شوقى يصف فيه قصور أنس الوجود حيث يقول إنها أشبه بعذارى سابحات فى الماء ، وقد أبدين بعض أجسادهن الغضة البضة . وكثيرا ما يفتننا الشعراء باستثارة غامضة لأحاسيس الجنس التى تروق القارىء الجائع الذى يأتيه منظر المرأة من حيث لا يحتسب ؛ فيخيل إليه أن الجنس عالم مسحور . وخليق بنا إذن أن نصدق العقاد حينما ينبهنا إلى تخييلات الحاجات الأولية التى تلعب بالعقول . ولو قد كان هناك إشباع طبيعى كما عرفنا كيف يكون لمثل هذه الصور بريق متداول بين القراء .

وربما توهم الشاعر وقد ذكر الظل والماء والنسيم أنه بحاجة إلى إثارة تعفيه من شبه الراحة الراكدة فقدم عذراء فاتنة هبطت فى الوادى ، وأصابتها الحيرة ، وأصبحت محتاجة إلى من يأخذ بيدها أو يطمئنها على حبات العقد النظيم . وربما كان هذا كله قريبا من حلم يقظة يتوهم فيه المرء ما يحتاج إليه محققا بين يديه .

والمهم أن العقاد يشير فى تعليقه إلى ضروب الاستجابات المتوارثة ، ومحبة المعادن النفيسة والجواهر الثمينة . وقد اجتمع للعذراء فتنة ثانية هى فتنة الكنز الذى يتراءى فى حلم ثان يكمل الحلم السابق ويزيده جاذبية . عذراء فاتنة من ناحية وجواهر ثمينة من ناحية . وربما سخر الدر لخدمة هذا الجنس المسحور .